

الملتقى الدولي: الإساءة إلى المقدسات الإسلامية بين سياقات حرية التعبير وخطاب الكراهية 29/28 ديسمبر 2021

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر

نشر فضائل المصطفى ﷺ وهدية وأثره في مكافحة الإساءة إلى مقامه
الكريم

Spreading the virtues of Mustafa and his gift and its impact in
combating abuse of his holy place

خالد حسيني¹، عبد القادر لعبودي²

¹ جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر hac.khaled@univ-adrar.edu.dz

² جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر laboudi@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الإرسال: 2022/05/15 تاريخ القبول: 2022/09/06 تاريخ النشر: 2022/10/01

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى الإسهام في الدفاع عن مقام النبي الكريم ﷺ في ظل الهجمات المتكررة التي يتعرض لها في هذه الأزمنة المتأخرة تحت دعوى حرية التعبير .

وقد تناول البحث أهمية الدفاع عن النبي ﷺ ومكانتها في الشريعة الإسلامية وأنها فرض واجب على كل مسلم بدلالة نصوص كثيرة من القرآن والسنة، كما تعرض البحث لطرق نشر فضائل النبي ﷺ وهدية وترسيخ ذلك في النفوس، وأن هناك عدة طرق لذلك من أهمها وأعظمها: التزام سنته والتحلي بأخلاقه، والعناية بسيرته وشمائله معرفة ودراسة وتديسا ونشرا، ثم تعرض البحث لأثر نشر فضائله ودورها في مكافحة الإساءة إليه، وأظهر أن من أعظم تلك الآثار زيادة الإيمان به وتقويته وتقوية محبته في قلوب المؤمنين حتى يكون أولى بهم من أنفسهم، وإلجام الطاعين فيه ﷺ وإغاثتهم وحملهم على الانكفاف عن الإساءة إلى مقامه الكريم.

الكلمات المفتاحية: إساءة، مقام، الدفاع، سيرة، شمائل.

Abstract:

This research aims to contribute to the defense of the status of the Holy Prophet in light of the repeated attacks he is subjected to in these late times under the pretext of freedom of expression.

The research addressed the importance of defending the Prophet and its place in Islamic law and that it imposed a duty on every Muslim to replace many texts from the Qur'an and Sunnah, as well as the research was exposed to ways of spreading the virtues of the Prophet (pbuh) and his gift and establishing this in the souls, and that there are several ways to do so, the most important and the greatest: the commitment of his year and his morals, and the care of his biography and his signs of knowledge, study, study and publication, and then the research was exposed to the effect of spreading its virtues and its role in combating abuse, and showed that The greatest of these monuments is to increase faith in him, strengthen him, and strengthen his love in the hearts of believers so that he can be more capable of them than themselves, and to bring the appellants to him, peace be upon him, to make them feel satious and to make them refrain from offending his holy place.

Keywords: abuse, shrine, defense, biography, meteors

مقدمة:

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق مختلفين؛ فمنهم المؤمن والكافر، والصالح والطالح، والعاقل والسفيه، والمؤدب والوقح، والشرير والخير، ليلوهم أحسن عملا، وسلط على أهل الحق شيئا من باطل أهل الباطل وأذاهم؛ يكثر مرة ويقل مرات؛ ليرفع من مقدار المؤمنين ويُعلي منزلتهم في الجنات، ويظهر للناس بامتحانهم مقدار صبرهم وتمسكهم بالحق ومنافحتهم عنه وتجلدهم عليه، فلولا أهل الباطل ما بانت ميزة أهل الحق، ولولا جبن الجبناء ما ظهرت شجاعة الشجعان وفروسية الفرسان، ولولا شحّ البخلاء ما ظهر سخاء الكرماء.

والضدّ يُظهر حُسْنَهُ الضدّ *** وبضدّها تتبين الأشياء

وقد جرت سنة الله في خلقه أنه يرفع درجات عباده ويكتب لهم المنازل الرفيعة؛ إما بتيسير فعل الخيرات عليهم وتوفيقهم إليها، وإما بتسليط البلاء عليهم وتوفيقهم للصبر عليه والاحتساب فيه.

ومعلوم عند كل مسلم أن أشرف هذه الأمة التي هي خير الأمم هو نبيها ورسولها مُحَمَّد ﷺ، ولا يزال يكتب له من الأجر حتى بعد موته ما يرفع به درجته ويُعلي به رتبته، ومن ذلك ما يناله من ثواب العمل بالهدى الذي دعا إليه، أو بوقوع بعض أعداء الله في عرضه بالظعن والتنقص والإساءة والاستهزاء، فيزداد هو بذلك رفعة ومنزلة، ويزدادون هم بذلك إثماً وعذاباً.

وقد نال نبيُّنا الكريم عليه الصلاة والسلام في هذه الأزمنة المتأخرة من الظعن والاستهزاء والإساءة ما لعله لم ينله في زمن قبله، وكل ذلك تحت دعوى حرية التعبير وما أشبهها من الدعاوى الزائفة والجرأة التالفة.

وعلى الرغم من أن ظعن الكفار في مقامه الكريم يزيده رفعة عند الله ومع ذلك فينبغي للمسلم أن لا يرضى بذلك ولا يُقرّه، بل الواجب المتحتم على كل المسلمين هو الدفاع عن جنابه الكريم، والذب عن عرضه ومقامه وشخصه، كل حسب قدرته ومكنته وطريقته؛ بشرط أن تكون طريقة شرعية لا تتصادم مع أصول الشريعة ونصوصها، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وطرق الدفاع عنه ﷺ يمكن اختصارها من حيث الجملة في كونها إما طرق دفع أو طرق رفع؛ أي طرق تدفع بها الإذابة عن مقامه قبل أن تقع الإذابة والتعدي، أما إذا وقت الإذابة والتعدي فلا بد من طرق لرفع تلك الإذابة ورد ما يثار حول مقامه الكريم من شبهات وافتراءات.

وسيتناول هذا البحث الجانب الأول وهو طرق دفع الإذابة؛ بدراسة واحد من أهمها وهو طريق الدفاع عنه من خلال نشر فضائله وهدية، وتعريف المسلمين وسائر العالمين بحقيقة هذا النبي الكريم، حتى يرتسم في النفوس التصوّر الصحيح لمقامه الكريم، فلا يستطيع بعد ذلك أحد أن

يشوّه صورته أو ينفر الناس عنه، ولو بذل في ذلك كل غال ونفيس؛ لأن السامع قد تشرب الصورة الصافية لهذا النبي الكريم، فلا يمكن لأحد بعد ذلك أن يُكذّرها عليه.

وستسعى هذه المقالة إلى الإجابة عن إشكالين مهمين يتعلّقان بهذا الموضوع؛ هما: ما هي الطرق التي تستعمل في نشر فضائل النبي ﷺ وهدية وترسيخ ذلك في النفوس قبل أن تصل إليها الإساءات والاعتداءات؟ وكيف يؤثر نشرها في مكافحة حملات الإساءة إليه؟

وللإجابة عن هذين الإشكالين جاءت هذه المقالة مقسمة إلى ثلاثة نقاط رئيسية:

تناولت الأولى: وجوب الدفاع عن النبي ﷺ على المسلمين.

وتناولت الثانية: طرق نشر فضائله ﷺ وهدية وترسيخ ذلك في النفوس.

وتناولت الثالثة: أثر نشر فضائله ﷺ وهدية في مكافحة الإساءة إليه.

ثم خاتمة فيها أهم النتائج والتوصيات التي ظهرت من خلال البحث.

وكل ذلك في ضوء ما تدل عليه أدلة الكتاب والسنة وفق المنهج التحليلي.

والله المسؤول أن يجعل هذه المداخلة نافعة ولبنة في صرح الدفاع عن مقام النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

1. وجوب الدفاع عن النبي ﷺ على المسلمين

تسلط أعداء الله على أوليائه وأصفيائه وعلى رأسهم الرسل والأنبياء من السنن الكونية التي جرى عليها أهل الكفر والمحادّون لله ورسوله، ييغون بذلك الدعوة إلى سبيلهم الهالكة، ويرومون صدّ الناس عن سبيل الله، ولما كان الحق أبلجا ليس به خفاء؛ وكلمة الله العليا لا يقدر على تسفيلها حاسد ولا على وأدّها حاقد ولا معاند؛ كانت غاية ما يصل إليه المناوئون هي الطعن والتشغيب؛ وكيّل التهم والافتراءات؛ رَوْماً لتشويه المكانة العلية للأنبياء.

ولما كان الأنبياء أشرف الخلق على الله وأكرمهم كما قال تعالى: (أولئك الذين هدى الله) (الأنعام:90) كانت معاداتهم من أقبح الذنوب والمعاصي، وقد توعد الله سبحانه وتعالى مُقارِفها بالتهديد والوعيد الشديد، قال الله تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا عظيما) (الأحزاب: 58)، وجعل من أقبح ذنوب الأمم السالفة وأعظم أسباب هلاكها بعد تكذيبهم بالرسول أنهم تعرضوا لهم بالإذابة؛ قال الله تعالى عن قوم لوط عليه السلام: (لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) (الشعراء:167)، وقال أهل مدين لنبيهم: (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) (الأعراف:88)، وجعل سبحانه وتعالى من أعظم أسباب غضبه على بني إسرائيل أنه كانوا يعتدون على أنبيائهم حتى وصلت بهم الإساءة والتعدي إلى حد القتل؛ قال الله تعالى: (سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق) (آل عمران: 181)، ولم يقتصر أذاهم على الأذى الحسي بل تعدد ليشمل غيره من الأذى كالأذى المعنوي واللفظي، فقد قال موسى لقومه بعد أن آذوه: (يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) (الصف:5)، قال البغوي في تفسيرها: "رموه بالأُدرة"⁽¹⁾، وقال ابن جزى: "كانوا يؤذونه بسوء الكلام وبعضيانه وتنقيصه"⁽²⁾، ثم نأنا الله عن التشبه بهم في ذلك فقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله ما قالوا وكان عند الله وجيها) (الأحزاب:69).

ونال نبينا ﷺ من الأذى ما نال إخوانه الأنبياء، فاتهمه قومه بعد أن آذوه حسا حتى أذموا قدميه وكسروا رباعيته وشجّوا رأسه بأنه ساحر وكاهن، وأنه يعلمه بشر، وأنه يريد أن يصد قومه عن سبيل آبائهم الذين مضوا، وأنه يدع من الرسل، وأنه افتري على الله كذبا، وأنه وأنه وأنه... إلخ، إلا أن كل تلك التهم لم تزلزل من مكانته ولم تصده عن تبليغ رسالة ربه سبحانه وتعالى.

وقد قام الصحابة رضوان الله عليهم بالدفاع عن عرض نبيهم ﷺ ودحر شبهات المخالفين لدعوته وردّها بشتى الوسائل والطرق، فنشروا فضائله وهدية، وبينوا للناس نقاوة دعوته، وردوا على الشبه المثارة حوله وحول سنته، وساروا في الأرض داعين ومبشرين ومنذرين؛ ليعرفوا الناس بهذا

الدين وبهذا النبي الذي جاء به؛ حتى يرى الناس ذلك بأمر أعينهم، فلا يستطيع بعد ذلك مفتر ولا كذاب ولا مشغب أن يشوّه صورة هذا النبي ولا أن يفترى عليه وعلى ما جاء به.

بل بذل كثير من الصحابة ومن بعدهم أعراضهم وأعراض آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم من أجل الدفاع عن عرض النبي ﷺ، ولسان حالهم يقول كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه وأرضاه:

فإن أبي ووالده وعرضي *** لعرض نبيكم فداء⁽³⁾

وقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده بأنه نصر نبيه لما كان في أضعف الأحوال وأشدّها حاجة إلى النصر فقال: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار) (التوبة: 40)، فدلّت هذه الآية على أن نصرته مطلوبة من المؤمنين في حال قدرتهم على ذلك؛ وأن ذلك أمر واجب عليهم، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: عَاتَبَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ بِتَرْكِ نُصْرَةِ الرَّسُولِ سِوَى أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ⁽⁴⁾، "وقال سفيان بن عيينة. خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبه"⁽⁵⁾.

وقد حض الله عز وجل المؤمنين على تعزيز النبي ﷺ ونصرته والدفاع عنه فقال: (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) (الفتح: 9)، ومعنى تعزروه أي: تنصروه وتمنعوه⁽⁶⁾.

وجعل سبحانه وتعالى من علل إنزاله الكتاب والميزان أن يعلم من عباده من ينصر منهم دينه ورسله ومن لا يفعل؛ فقال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد: 25).

أي: "ليعلم الله من ينصره؛ وذلك أن الله تعالى أمر في كتابه بنصرة دينه ورسله وامتنح الناس بذلك الأمر، فمن نصر دينه ورسله علمه ناصراً، ومن عصى علمه بخلاف ذلك"⁽⁷⁾.

فإذا تقرر أن نصرة النبي ﷺ واجبة على أتباعه والمؤمنين به؛ كان مطلوباً منهم معرفة الوسائل التي ينصرونه بها ويدافعون عنه بها؛ ومن جملة ما ينصر به ويدافع به عنه هو أن تنشر فضائله ومحاسنه وهدية في الأمور حتى تبلغ القاصي والداني، وتتجلى صورته التي وردت بها السنة صافية نقية لا يشوبها تكدير ولا غبش، وتظهر جدوى هذا الأسلوب وأثره في أن صورته الحسنة والصفية إذا ارتسمت في النفوس على وجهها، وعرف الناس حقيقة هذا النبي الكريم وحقيقة دعوته التي جاء بها اطمأنوا إلى عظم هذا النبي وعلو مقامه ومنزلته، فإذا صدرت في حقه بعض الإساءات والطعونات والانتقاصات ممن سؤدت غشاوة الحقد والباطل أبصارهم وبصائرهم لم تجد لها في نفوس الناس محلاً ولا منزلاً؛ لأن قلوبهم قد تعرفت على حقيقة هذا النبي وعرفت منزلته ورسالته؛ فلا يجد فيها ذلك التنقص والطعن محلاً ينزل فيه، بل يجد ما يفنده ويدمغه ويكذبه من الحقائق الثابتة والمستقرة التي سبقت إلى الذهن قبل ورود الإساءة، وإنما يؤثر ذلك الطعن وتُستقبل تلك الإساءات من القلوب الفارغة والأذهان الخالية من الصورة المسبقة والمعرفة الحقيقية بهذا النبي الكريم، فلا تمنع تلك القلوب الفارغة الخربة من فتح بابها لتلك الإساءات والطعونات، ولا ترى حرجاً من الإصغاء إلى قائلها والتصنت لما يقولونه ويلقونه ويهدرونه من حثالات الأفكار وبذء الكلام؛ كما لا تمنع من أخذ تصورات عن أشياء تجهلها من خلال رسوم كاريكاتورية ساخرة، أو من تصاوير ماجنة تهدف إلى التشويه والطعن، وثقيل متجلبة بعباءة حرية التعبير، وهذا شأن الجاهل في كل زمان ومكان وحال، وليس هناك دواء أنفع من أخذ التطعيم قبل حلول المرض، والوقاية خير من العلاج.

وسيتناول المبحثان التاليان بيان شيء من طرق ووسائل نشر فضائله ﷺ، ثم بيان شيء من الآثار التي يمكن تحقيقها من خلال السعي في نشر فضائله ومحاسنه ﷺ.

2. طرق نشر فضائل النبي ﷺ وهدية وترسيخ ذلك في النفوس

إذا تقرر أن من خير وسائل مكافحة الإساءات للنبي ﷺ هو نشر فضائله ومناقبه وهدية وترسيخ ذلك في النفوس حتى لا تجد تلك الإساءات والمطاعن إلى النفوس سبيلاً تنفذ إليها منه؛ فإن لنشر ذلك طرقاً متعددة وأساليب متنوعة؛ ينبغي لمن استشعر مسؤولية الدفاع عن النبي صلى

الله عليه وسلم وأبصر ثقل ما ألقى على عاتقه من واجب نصرته أن يسلك ما قدر عليه منها؛ حتى يبرئ ذمته وينصر نبيه ويعزّره؛ ومن أشهر تلك الطرق والأساليب:

1.2 التزام سنته والتحلي بأخلاقه

من أبرز وأهم وأجدى الطرق التي تنشر بها فضائل المصطفى ﷺ وهديه هو التزام الدعاة بسنته وإظهارها بينهم في الواقع والمشاهدة، فلا شيء أبلغ في التأثير على النفوس من أن ترى من شخص أو أشخاص التزاما تاما بالهدي الظاهر والباطن في كل مجالات الحياة سواء في العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو التربية أو الدعوة أو غير ذلك من المجالات، مع الإظهار والتبيين بأن منشأ تلك الأخلاق والخصال الحميدة هو التزام صاحبها بتوجيهات نبيه ﷺ واقتداؤه به فيها، واتباعه له عليها؛ فيعرف المدعو والرأي أن هذه الخصال الحميدة هي حقيقة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ما يراه أمامه هو ثمرة يانعة من ثمرات دعوته التي جاء بها، ومن كانت هذه دعوته فهو ذو مكانة عليّة، وأن من أساء إليه وصوّره بغير هذا فهو مفتر كذاب.

ولا شك أن كل البشر وجميع أهل الملل والديانات يدعون أنهم أهل الأخلاق الحميدة والمعاملات الرفيعة والخصال السامية، لكن سرعان ما يكذب الواقع تلك الدعاوى ويفندها، ولا يصدق في الامتحان الميداني إلا المؤمنون الخالص من أتباع النبي ﷺ.

فالتزام المؤمن بسنة النبي ﷺ الحسنة وهديه الهادي للخيرات وسمته الطاهر في الباطن والظاهر هو خير وسيلة لتحبيب الناس في سنته ودعوتهم إلى ملته، وخير برهان على أن هذا النبي هو نبي الخيرات والرحمات، ونبي الفضائل وصفوة الخصال، والدعوة بالفعل أبلغ من الدعوة بالقول، وتأثير عمل الداعي بفعله في المدعويين أبلغ من تأثير قوله فيهم، ولا يستقيم أن يسعى من يريد أن ينشر في الناس فضائل المصطفى ويعرفهم بسنته وهديه وهو أول المخالفين لتوجيهاته وسنته في أفعاله أو أقواله أو ومعاملاته، بل عليه أن يأخذ بالقول المشهور عند كثير من الحكماء: "إذا كنت إمامهم فكن أمامهم".

وإضافة إلى كون التزام سنته وهدية من أبرز طرق نشر سنته وفضله ودعوة الناس إليها؛ فالمسلم مطالب بذلك الالتزام قبل أن ينظر إليها على أنها من طرق نصرته لبنية؛ فاتباع النبي ﷺ قبل أن يكون كذلك علامة على صدق المحبة الشرعية لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ؛ كما قال تعالى في كتابه: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) (آل عمران: 31)، قال الحسن وابن جريح: "إن قوما قالوا للنبي عليه السلام: يا مُجَدِّدُ إنا نحب ربنا، فنزلت هذه الآية في قولهم" (8).

وقد أثمر التزام كثير من المسلمين لسنته وهدية ثمرات يانعة بنشر دينه وتعريف كثير من الشعوب التي لم تصلها فتوح أهل الإسلام بحد السنان، فلم يدخل الإسلام إلى أقصى جنوب شرق آسيا ولا إلى أدغال إفريقيا ولا إلى قلب أوروبا ولا إلى قارة أمريكا التي لم تطأها قدم أي جيس من جيوش الفاتحين إلا بما نقله لهم من التزم بسنته من أهل الإسلام ثم ذهبوا به إلى تلك البلاد فرأى الناس من حسن سمتهم وهديتهم وصدقهم في بيعهم وشرائهم ومعاملتهم وعفتهم ونحو ذلك ما دعاهم إلى البحث عن سبب هذا الخلق الراقي والمعاملة الحسنة؛ فلم يجدوا لها سببا أجلى من التزامهم بسنة نبيهم وانقيادهم لدينهم الذي جاءهم به من رب العالمين رسول أمين؛ فأقبلوا على هذا الدين وتعرفوا على منزلة ذلك النبي الكريم الذي جاء به وعلى كريم خصاله، وتركوا ما كانوا عليه من الجاهلية الجهلاء والوثنية الظلماء، التي ما فتئت تنقلهم من عماء إلى عماء، فلا يرون في بقية أديان البشرية شمس حق ولا بانة له فيها نور ولا ضياء.

فالصين —مثلا— دخلها الإسلام أول ما دخلها عن طريق التجار المسلمين، يقول سير توماس أرنولد: "ومن المحتمل جدا على الرغم من قلة الشواهد التاريخية الصريحة أن الإسلام دخل الصين أول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون الطريق البحري القديم" (9).

فالصينيون عرفوا الإسلام والنبي ﷺ أول مرة عن طريق التزام أهل الإسلام بدينهم وتعاملهم معهم على وفق حدوده وشرائعه وأمانته، والصين اليوم فيها أكثر من أربعة وعشرون مليون مسلم.

فإذا كان الالتزام بشرائع الإسلام من المسلم يؤثر تأثيرا كبيرا في نشره وإقناع الناس به؛ فالالتزام سنة النبي ﷺ والتحلي بأخلاقه وما دعا له من الفضائل فيه نشر لفضائله وتعريف به ودعوة للناس إلى الإقبال عليه والتأسي به، ويكون ذلك سببا في عدم قبول الإساءة إليه أو الطعن فيه.

2.2 العناية بسيرته

ومن وسائل نشر فضائله ﷺ هو العناية بسيرته العطرة وتدريسها وتعليمها للناس، واستنباط الأحكام والعبر منها، على وجه تظهر به المنزلة العلية لهذا النبي الكريم؛ وتتجلى فيها الآثار والدروس المختلفة في شتى المواقف والأحوال والمراحل التي مر بها في سيرته.

وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحرصون على تعلم سيرة النبي ﷺ ومغازيه ويعلمونها أبناءهم؛ لأنها تمثل مجدهم ومجد آبائهم، وتعظم في نفوسهم المنزلة العلية لأولئك الذين دارت عليهم أحداثها ووقائعها، وعلى رأسهم رسولنا ﷺ، قال علي بن الحسين: "كنا نُعَلِّمُ مغازي النبي ﷺ كما نُعَلِّمُ السورة من القرآن"⁽¹⁰⁾، وعن إسماعيل بن مُجَدِّد بن سعد، قال: "كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ ويعدّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها"⁽¹¹⁾.

فإذا نشأت الأجيال على سماع أخبار سيرته العطرة المشوقة؛ وارتسمت في النفوس صورة بهيمة عن صاحب هذه السيرة وعن طريقته في التعامل مع أصحابه ومع أعدائه ومع الشريف والوضيع، ومع الصغير والكبير، وبأن منها صبره على أذى قومه مع إرادته الخير لهم، وغير ذلك من الدروس والعبر الكثيرة التي تُثمرها دراسة السيرة، فإن ذلك كاف في أن لا يكون للإساءات المنبثقة من حين لآخر من بعض الأغمار الفجار أثر ولا جدوى، بل ستكون تلك الاستفزازات سببا لتحريك تلك الدروس وجعلها مثارة في الخطب والدروس والمجالس، مما يزيد من نشرها والتعريف بمقامه الكريم وجنابه العظيم.

وللعناية بسيرته وتعليمها الناس طرق كثيرة، مثل عقد المحاضرات فيها والدورات والندوات، وجعلها مواضيع للخطب والدروس المسجدية، أو مواضيع لبحوث ودراسات أكاديمية وورقات بحثية، وغير ذلك كثير.

3.2 تدریس شمائله

ومن بين أهم الأساليب والطرق في نشر فضائل المصطفى وهدية بين الناس كذلك هو العناية بشمائله وتدريسها للناس وتعريف الناس بتفاصيل حياة النبي ﷺ وتصرفاته.

والشمائل هي: "الخصائل الحميدة والطباع الحسنة؛ جمع شميلة، كالشمائم جمع شميمة، والكرائم جمع كريمة، وقيل جمع شمال بالكسر وهو الخلق بالضم يقال فلان كريم الشمائل. والخلق بالضم وسكون الثاني السجية والطبيعة، وهو مختص بالصفات الباطنة، وقد ذكر في كتاب «الشمائل» للترمذي الصفات الظاهرة أيضا وجعلت تابعة لأخلاقه ﷺ»⁽¹²⁾.

وميدان الشمائل والخصال ميدان خفيف على النفوس، تشتاق لسماعه الأذان وتشرئب إلى تلقيه أعناق الشيوخ والشبان، فلا يجد من يريد تعريف الناس بشمائله في عرضها على الناس صعوبة ولا لأواء، بل لا يرى من الناس إلا الإنصات لها والإصغاء، ويرى التزامهم بها واقتداءهم به فيها يسري سريانا، وظهور آثار تعليمها فيهم ظاهر عيانا.

فالشمائل تحبب لهم النبي ﷺ، وتجعلهم يلحظون تفاصيل حياته الدقيقة؛ من صفاته وأحواله وأخلاقه مع ربه وأصحابه وأعدائه ومع أهله وأزواجه، وفي حال اليسر والعسر، والسلم والحرب، وترسم لهم صفاته الظاهرة والباطنة، وسمت عباداته ومزاحه ونومه ويقظته وليله ونهاره وطعامه وشرابه ولباسه وغير ذلك من التفاصيل والجزئيات التي يتناولها موضوع الشمائل.

ولما كان النبي ﷺ أشرف الخلق وأكرمهم عند الله وأعز نبي على أصحابه وأمتة فإن سيرته وشمائله نالت من الخدمة والحفظ والنقل ما لم تنله سيرة وشمائل أحد من عظماء العالمين، لذلك فهو أولى وأسهل من تُقَرَّب سيرته وشمائله للناس؛ لأنه نُقل عنه من التفاصيل ما لا يحوزه أحد غيره من العالمين.

فعلى من يريد نصرة النبي ﷺ أن يبين للناس ما كان عليه من كريم الخصال وطيب الفعال؛ حتى تعظم منزلته في النفوس وتجد نفسها مضطرة عندما تبهرها الشمائل الشريفة والأخلاق المنيفة

والخصال اللطيفة إلى جعل ذلك الرسول والنبي هو الأسوة والقُدوة، وتجعله منارا يقتدى ودليلا به يهتدى، ويكون بذلك ممتثلا لقوله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (الأحزاب: 21).

فإذا عرفت الناس شمائله واتخذته قدوة وأسوة؛ فلا يمكن بعدها أن تقبل فيه طعنا ولا إساءة، ولا أن يرضوا رمية بنقص ولا أن يلحق إليه بتعريض ولا غضاضة.

3. أثر نشر فضائله ﷺ في مكافحة الإساءة إليه

إن الاشتغال بنشر فضائله ﷺ وبيان هديه وسنته للناس من أجل جعله تطعيما مسبقا لمكافحة الإساءات والطعونات التي يرميه بها من لا خلاق له ولا حُلُق يثمر جملة من الآثار الطيبة، يشترك في تحصيلها الساعي في نشر تلك الفضائل والمدعو إليها معا، ومن أهمها:

1- زيادة الإيمان بالنبي ﷺ وتقويته: وذلك أن الإيمان ينبني على مقدار المعرفة بالمؤمن به؛ ومن بين الأسباب في كون الصحابة رضي الله عنهم أقوى هذه الأمة إيمانا وحبا للنبي ﷺ هو معرفتهم التامة بالنبي ﷺ وبأحواله وأوصافه؛ فكانت معرفتهم به على قَدَرٍ لم يحصل لأحد ممن جاء بعدهم، فهم آمنوا بشيء شاهدوا صدقه بأعينهم وسمعوا منه القرآن بأذانهم ووعوه منه بقلوبهم مباشرة دون واسطة، وكذلك حال من جاء بعده؛ فلا يستوي حال من بحث في حاله والتزم بسنته وعرف ما كان عليه من الفضائل والخصال الحميدة وعرف ما كان يحب وما كان يكره وما كان يفعل وما كان يترك على وجه التفصيل؛ وبين من كان إيمانه به على وجه الإجمال والعموم، وعندما يُسأل عن تفاصيل حياة هذا النبي الكريم الذي يؤمن به قد لا يعرف عنه إلا اليسير مما يقيم به مطلق الإيمان لا الإيمان المطلق به ﷺ.

وقد حث الله سبحانه وتعالى الناس على التأمل والتفكير في حال هذا النبي وأوصافه؛ فالتأمل فيها بصدق وإنصاف كاف وحده في الإيمان بأنه رسول الله حقا وصدقا، قال الله تعالى: (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرداى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) (سبأ: 46)، والمعنى: "قل -أيها الرسول- لهؤلاء المكذبين المعاندين:

إنما أنصح لكم بخصلة واحدة؛ أن تنهضوا في طاعة الله اثنين اثنين وواحدًا واحدًا، ثم تتفكروا في حال صاحبكم رسول الله ﷺ وفيما تُسب إليه، فما به من جنون، وما هو إلا مخوف لكم، ونذير من عذاب جهنم قبل أن تقاسوا حرّها" (13).

فلاجهتاد في نشر فضائل المصطفى ﷺ وهدية يزيد المؤمنين إيمانًا، ويدعو الكافرين الذين لم تبلغهم الصورة الحقيقية لهذا الدين ولهذا النبي الكريم إلى الإقبال على الإيمان والهدى، وعند ذاك لا يجد الطاعنون والمسيؤون إلى مقامه الكريم سُوقًا تروج فيه سلعهم الكاسدة، ولا من ينصت لطفوناتهم الحاسدة والحاقدة.

2- زيادة محبته في قلوب المؤمنين: وهي من فروع أثر زيادة الإيمان به الذي تقدم، فمن عرف سيرته وشمائله والتزم بهديه وسنته في ظاهره وباطنه سيحمله ذلك على أن يكون النبي ﷺ أحب الناس إلى قلبه وأكرمهم عليه، فلا يسكت عن يوالي ما فيه رائحة للطعن فيه أو الانتقاص منه؛ فضلًا عن أن يرضى بتلك الطعون الفاجرة الآثمة، قال ابن القيم رحمه الله: "العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاءل حبه وتزايد شوقه إليه واستولى على جميع قلبه وإذا أعرض عن ذكره وإحضار محاسنه بقلبه نقص حبه من قلبه، ولَا شَيْءَ أَقْرَ لِعَيْنِ الْمُحِبِّ مِنْ رُؤْيَةِ مُحْبُوبِهِ، وَلَا أَقْرَ لِقُلُوبِهِ مِنْ ذِكْرِهِ وإحضار محاسنه، فإذا قوي هذا في قلبه جرى لسانه بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه، والحس شاهد بذلك حتى قال بعض الشعراء في ذلك

عجبت لمن يقول ذكرت حيي *** وهل أنسى فأذكر من نسيت (14)

3- جعل الناس النبي ﷺ أولى بهم من أنفسهم: فإذا نشر الدعاة بين الناس فضائل النبي ﷺ وهدية عرف الناس أنه ﷺ هو صاحب المنّة عليهم أجمعين، وأنه أرحم بهم من أنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، وأنه عزيز عليه ما يُعْنَتُهُمْ، ولولا الهدى الذي جاءهم به من رب العالمين لكانوا لا يزالون في ظلمات الجاهلية الجهلاء يعمهون، وللأوثان والأحجار يركعون ويسجدون، وبالخرافات والأساطير الباطلة يؤمنون، وقد أكد هذا المعنى رب العالمين بقوله سبحانه وتعالى: (النبي أولى

بالمؤمنين من أنفسهم) (الأحزاب: 6)، وأكدده هو ﷺ؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (الأحزاب: 6)»⁽¹⁵⁾.

وإذا تمكن الدعاة ومن يريدون نصره النبي ﷺ بنشر فضائله وهدية من تحقيق هذه المكانة له في قلوب الناس كان ذلك أقوى وأنفع وقاية وتطعيم لهم من الوقوع في إساءات المسيئين له.

4- إجماع الطاعين فيه ﷺ وحملهم على الانكفاف عن الإساءة إلى مقامه الكريم: نشر فضائله وهدية بين الناس من أقوى ما يحمل الطاعين من أعداء الله ورسله الكافرين على الحرس والانكفاف عن التطاول على مقامه الكريم؛ لأنهم يعلمون منزلته العالية في قلوب المسلمين، ويعلمون ما سيجر ذلك عليهم من الأضرار والأخطار، وما هي ردات الفعل التي سيصدرها المسلمون ضدهم إذا اعتدي على مقدساتهم وعلى رأسها نبيهم ﷺ، وإنما يُجرئهم على الإساءة وتكرارها كل مرة وكل حين هو ما يرونه -للأسف- من ضعف تعظيم النبي ﷺ في قلوب أتباعه؛ فهم يرونهم قبل أن يبادروا لنصرته قد خالفوا أمره وتركوا الالتزام بسنته وهدية في كثير من مظهرهم ومخبرهم.

5- إغاشة أعداء الإسلام وإرغامهم: فلا يغيظ الكافرين والمناوئين لدعوة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلا أن يروا أمته مُعظّمة له، عارفة بسنته على الوجه الصحيح، وملتزمة بتعاليمه وتوجيهاته، مقتدية به في جميع شؤون حياتها الدينية والدنيوية والسلوكية وغيرها، ونشر فضائل المصطفى ﷺ وهدية بين الناس يعني بالنسبة لهم أن تصبح القدوة الأولى للمسلمين هو نبيهم ﷺ وستسقط تبعاً لذلك شخصياتهم المبهجة التي طالما حاولوا تصويرها للمسلمين على أنها نماذج مثالية لأفضل الشخصيات العبقريّة من بني جنس البشرية، من فلاسفة ومفكرين وأدباء ومخترعين وفنانين ولاعبين، وغير ذلك من الشخصيات التي يروجون لها بشتى الوسائل لترسم في أذهان الشعوب المسلمة؛ وتُنسبها في قدوتها العظمى ونبيها الكريم ﷺ، وتعلقها بالنطيحة والمتردية من تلك الشخصيات، فإذا استقام لهم ذلك وخلعوا من أذهان المسلمين تعظيمه ومنزلته التي ينبغي أن

تكون له عند كل فرد منهم؛ سَهْل عليهم بعد ذلك الطعن فيه والإساءة إليه وتنقّصه بشتى أنواع التنقص والطعن.

أما لو اجتهد من يريد نصرته ﷺ في نشر سنته وهدية بين المسلمين وغيرهم فلن يجد أعداء الإسلام من يستغلونه بتلك الشخصيات التافهة؛ لأن ذلك المحل قد سبقهم من دعاة المسلمين من شغله وملاه بسيرة النبي ﷺ وسنته وهدية وشمائله؛ فشرب منها حتى ارتوى وورد منها ونهل فاستغنى بها عما سواها مما لا يسمن ولا يغني من جوع.

الخاتمة :

وفي ختام هذه المقالة نذكر أهم ما تم التوصل إليه من نتائج:

- مكافحة الإساءة إلى النبي ﷺ لها سبيلان أساسيان: الرد على الشبهات والطعونات المثارة حوله؛ ونشر فضائله وهدية بين الناس وتعريفهم بحقيقته وحقيقة دعوته.
- نشر فضائل المصطفى ﷺ وهدية يعد تطعيما مسبق للأذهان والشعوب قبل أن ترد عليها الإساءات والطعونات؛ فإذا وردت لم يقبلها من عرف حقيقة هذا النبي ورجع ضررها على من صدرت منه.
- التزام هدي النبي ﷺ وسنته الغراء في العبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها؛ مع الإحسان في ذلك وإظهار كونها مأخوذة عن النبي ﷺ من أبرز طرق نشر فضائله وهدية؛ فالدعوة بالفعل أبلغ من الدعوة بالقول فقط.
- تدريس سيرة النبي ﷺ وشمائله ونشرها بين الناس من أقوى ما يحمل الناس على محبته وتعظيمه والتزام سنته وهدية، وذلك يحمل أعداء الله على الانكفاف عن الإساءة إليه لعلو مكانته عند أهل الإسلام.

● من أقوى ما يُجرى المناوئين على الطعن والإساءة إلى النبي ﷺ هو مشاهدتهم لعدم تعظيم كثير من المسلمين -للأسف- لمقام النبي ﷺ وجهلهم بمنزلته وحقوقه، وتركهم لكثير من هديه وسنته.

● من أعظم آثار نشر فضائله وهديه هو زيادة الإيمان به وزيادة محبته في القلوب، وعدّه القدوة والأسوة التي ينبغي أن تحتذى، وفي المقابل يغيظ أعداءه ويجعلهم ينكفون عن الإساءة إليه؛ لتوحد كلمة المسلمين عليه وعلى تعظيمه واتباع سنته، ولعلمهم أن ذلك سيرجع عليهم بالضرر والخطر، بل يزيد من انتشار الإسلام وإقبال كثير من الأمم عليه.

التوصيات:

ومن التوصايا التي عنت من خلال هذه الكتابة:

- حرص الدعاة على الدعوة إلى الالتزام بسنن النبي ﷺ في الباطن والظاهر، وحض من يدعي محبة النبي ﷺ ونصرته إلى ترجمه تلك الدعاوى إلى أفعال واقعية، فالفعل أبلغ من القول.
- الحرص على نشر دروس السيرة والشمائل والدعوة إلى اتباع، وحرص المدرسين والكتاب والإعلاميين ومن على شاكلتهم على استبدال القدوات التي تذكر في تلك الميادين بسيرة النبي ﷺ وأصحابه الكرام؛ حتى تتعلق الأجيال بأجداد أسلافهم الذي صنعوا الحضارة الحقيقية ليقتدوا بهم ويبنوا لهم مجدا كمجدهم.

المصادر والمراجع:

1. أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمود الطحان، دار المعارف، الرياض.
2. الأحمـد نكري، دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)؛ عرّب عباراته الفارسية: حسن هاني فحـص، دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2000م.

3. إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م.
4. حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: مُحمَّد أفندي شكري، مطبعة الإمام، مصر، 1321 هـ.
5. الحسين بن مسعود البغوي؛ معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)؛ تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ.
6. سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر، 1970 م.
7. عبد الحق بن غالب ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي مُحمَّد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ.
8. علي بن أحمد الواحدي، التفسير البسيط، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام مُحمَّد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ.
9. مُحمَّد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة على مُحمَّد خير الأنام، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط، دار العروبة - الكويت، الطبعة: الثانية، 1407 - 1987.
10. مُحمَّد بن أحمد ابن جزي؛ التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى - 1416 هـ..
11. مُحمَّد بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384 هـ - 1964 م.
12. مُحمَّد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مُحمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم مُحمَّد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422 هـ.
13. مُحمَّد بن جعفر الطبري، جامع البيان، تحقيق: أحمد مُحمَّد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.

14. مُجَدُّ بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ.
15. منصور بن مُجَدُّ السمعاني، تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض¹⁶ ض - السعودية، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م.
16. نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة: الثانية، 1430 هـ - 2009 م.

الهوامش:

- (¹) الحسين بن مسعود البغوي؛ معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)؛ تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ (79/5).
- (²) مُجَدُّ بن أحمد ابن جزي؛ التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى - 1416 هـ (370/2).
- (³) حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: مُجَدُّ أفندي شكري، مطبعة الإمام، مصر، 1321 هـ (ص:9).
- (⁴) منصور بن مُجَدُّ السمعاني، تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م (310/2).
- (⁵) مُجَدُّ بن أحمد القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384 هـ - 1964 م (143/8).
- (⁶) ينظر: مُجَدُّ بن جعفر الطبري، جامع البيان، تحقيق: أحمد مُجَدُّ شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م (207/22)، ومُجَدُّ بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - 1414 هـ، (56/5).
- (⁷) علي بن أحمد الواحدي، التفسير البسيط، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام مُجَدُّ بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ (313/21).
- (⁸) عبد الحق بن غالب ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي مُجَدُّ، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ (422/1).
- (⁹) سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة - مصر، 1970 م (ص:332).
- (¹⁰) إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1418 هـ - 1997 م (21/5).

- (¹¹) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمود الطحان، دار المعارف، الرياض (2/195).
- (¹²) الأحمد نكري، دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)؛ عَرَب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت، الطبعة: الأولى، 1421هـ – 2000م (2/161).
- (¹³) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية، الطبعة: الثانية، 1430هـ – 2009م (1/433).
- (¹⁴) مُجَدِّد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، جلاء الأفهام في فضل الصلاة على مُجَدِّد خير الأنام، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عبد القادر الأرنؤوط، دار العروبة – الكويت، الطبعة: الثانية، 1407 – 1987 (ص: 447).
- (¹⁵) مُجَدِّد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مُجَدِّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم مُجَدِّد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك ديناً، حديث رقم (2399)، (3/118).

